اللغة حين الحضارة تتقدم

ياسين طه حافظ

البحث والعناية.
واليوم يبدو نفد صبر أصحاب النظر، تقليديين أو حداثويين ، فصار العقل يواجه الدين مباشرة. لا جوهر الدين ولكن قيمه وتبنياته. واضحة اليوم الاتهامات بسوء الفهم أو نقص استيعاب النصوص وثمة رؤى جديدة وتفاسير. وأظنها مسألة لصالح الدين لا ضده. لأنها الطريقة الوحيدة لتشمله المعاصرة وهذا اتجاه مثلما هو علمي حواري الى درجة كبيرة، هو يضمن خطورة واضحة لأنه يقوّض منظومة هيمنات عقدية مغلقة، صنعتها الرواية والنقل. صارت للنص وللحدث مضامين تكسر من قدسية الرواية ثم دلالاتها كما تكشف عن فرص ارتياح للمعاني الجديدة. هي عملية علمنة وعصرنة للموروث. ضمن التقليدي والرغبة بالجديد، ثمة ممارسة في الخطاب الشفاهي تطرح ما امتلكه من زمن، بل يفرضه وكأن ليطرد الجديد الخطأ. صحيح هي تواجه، حتى من بعض المستمعين لها، اعتراضات لكنها اتخذت من جماهير العوام قوة اصغاء وفعل. هي مرئية مسموعة ، لكنها في رأيي ظاهرة زائلة وإن بعد حين. بقي أن نعرف مسألة مهمة، قد تبدو مجهولة للكثيرين، إن وراء تلك الظاهرة الخطابية- جاهزة الامثلة و التعابير- ترسانات متخصصة، لهم اجتهاداتهم. وأولاء يمثلون اليوم المؤسسة المتخصصة بـ "القديم". هؤلاء سيستمرون لأنهم يمثلون جانباً ثقافياً ولأن العصر لن يستغني عن هكذا ثقافة دينية إيمانية تاريخية واعتماد اللغة نحواً وتفسيراً . هم اليوم أكثر إحاطة بالموضوعات المتعلقة بتلك الحقول. قد يمثلون مؤسسة اختلاف مع مدارس العصر الحديثة، لكنهم يتولون حقولاً معرفية مهمة تسندها أحياناً بعض فلسفات العصر المؤمنة باحتياج الحياة لتلك المعارف من أجل تكاملها المعرفي. أحيانا هم يحتجون بالمعارف الجديدة متكآت اقناع لضعفهم الفكري في تلك.

نحن إذاً بازاء حضارات متزامنة تطغى مواصفات واحدتها على الأخرى. والعمل بطاقة ثقافات مختلفة بنسَب التنوع فيها، لا يحجب ظهور شواخص ادبية واسماء لامعة محلية. فالهجنة المتوقدة تنتج مبدعيها. ولذلك شهدنا عبقريات ادبية في افريقيا، حيث الثقافات / الحضارات الأخرى حاضرة وتتقدم. كما شهدنا أسماء في الشرق الاوسط وفي الهند وباكستان واسماء المبدعين اليابانيين معروفة في اوساط العالم الثقافية والمعرفية. حضارات اجنبية ، فرنسية ، انجليزية مع حضارات محلية مختلفة أقل شأناً...، كل هذه تعمل معاً في أوساط العالم الثقافية.

ولا غرابة بعد هذا ان تكون اللغة لا الدين هي المعْلَم الحاسم للحضارة. ربما ابسط الاسباب هو وجود اللغة قبل الدين وان الدين جاء عبر اللغة.

هذا المعْلَم الحاسم، بالنسبة للعرب، كما لبلدان افريقية عدة، تعرض الى هيمنة حضارة من لغة اخرى. نعلم إن الإنجليزية اليوم، في بلادنا، مثلاً، هي لغة الطب والعلوم. كذلك هي مصدر معارفنا في الآداب والفنون مما تعدى الأثر اللغوي الى التأثير الحضاري الأوسع. هو إذاً نفوذ لغة أخرى يلغي أو يقلل من نفوذ اللغة المحلية وحضارتها.

ثم إننا بازاء حالة ازدواج اللغة الوطنية نفسها لغة القراءة والكتابة غير لغة الكلام. الاخيرة لهجة او لهجات من الاولى. ما نواجهه ان اللغة المحلية تنتقص من نفوذها اللغةُ المؤثرة القادمة حاملة الحضارة الجديدة. فإذا قل نفوذ الفصحى، كيف هو الحال بالعامية؟ هذه تكون قد ابتعدت أكثر عن المستوى الحضاري المتاح. ومن بعد تضاءلت قيمة الموضوعات التي تنشغل بها. فإذا اضفنا اتساع التعليم وتراجع الأميّة مقابل التقدم الحضاري وتزايده الى درجة حتميّة القراءة والكتابة باللغة الاجنبية للتواصل والتفاهم، وهي عندنا الانجليزية، تكون النشاطات المادية الشفاهية قد فقدت حضورها الحضاري إلا لمن هم في المستوى الاقل تحضراً ومعاصرة. وهكذا تبدو الضآلة ، و تدني ما يتعلق بها من شعر وفنون ولذلك تبدو محاولات إيقاظ او تغذية "الشعر الشعبي" و الفنون الشعبية، من باب أما الاهتمام بالماضي أو استلطاف الطرائف او للدرس .

أمامنا طريقان، واحدهما تقدم العامية لتصبح اللغة الثقافية والرسمية، وهذا يعطي فرصة افضل للشفاهيات والشعبيات لتحقق تقدماً مرحلياً مفترضاً. أما في حال تطور الفصحى مع عدم الاكتفاء بها وحدها، لأن تطور المجتمع ثقافياً ومرحلياً أكثر من تطورها، فهذا يؤدي الى عدم الاكتفاء بها والحاجة الى لغة عالمية فاعلة في العصر. وهذا يجعل كلا الشفاهة وما يقاربها من فنون شعبية معاً، أليق بالمرحلة الحضارية السابقة لأنها بحسب ما ذكرناه تخلّفت في الدرجة الثالثة.

وهنا لابد من التأكيد على أن اللغة المتداولة تهتم بنقل "الحقائق الحرْفية" وأن لغة الادب والتاريخ تعَج بالاستعارات بحكم اتساع ومدى منظورها وأبعادها. فكيف سنقرأ غداً فنوننا الادبية واللغة مرتبكة فقيرة؟ الفقر الثقافي والقصور المعرفي والادبي، ثلاثة لا تصنع مجداً . اللغة القاصرة تزيد من حضور الوعي الزائف. المسألة ليست ارستقراطية ولا حلم نخبة.

النافع هو أن نتحدث بما ينفع التطور والمستقبل لا لإرضاء الحاضر ومجاملة الزائل. وهذا يعني أن تقدم اللغة الوطنية واكتمالها حاجة أساسية للتفاهم الحضاري الجديد ومتطلبات مفرداته. لا أعني السوق والحديث اليومي الاعتيادي ولا الحرفيات. أعني ما بعدها، الرسمي والثقافي والعلمي. فأي تشجيع على انهيارات في اللغة وفي تماسكها وقوتها الافصاحيين لا يخدم المستقبل الذي هي واسطته ولا التطور الحضاري.

اضطرت شعوب لأن تترك لغاتها للشارع واليومي وتتخذ لها لغة اجنبية للشأن الادبي والعلمي والحضاري الجديد. وهذه ظاهرة مبكرة لضمور اللغة الوطنية من بعد. الحجة بالتعبير عن روح الشعب، حجة غير مقنعة لركاكة اللغة وعاميتها. التعبير عن روح الشعب أصعب من التعبير عن أي موضوع آخر. فهو يحتاج الى لغة دقيقة نافذة ومتكاملة للتعبير عن احتياجات العصر وتعقيدات الشخوص وظروفهم، لا الى لغات عاجزة ركيكة لم تكتمل وتنضج تراكيبها. هذا يدعونا لأن نعيد فهمنا لمضمون "الثقافة الشعبية" الثقافة الشعبية بمفهوم الدراسات الحديثة لا تعبر عنها الشفاهة ولغة السوق اليومية، بل اللغة الأوسع والاكثر اكتمالاً. تبسيط الامور فيه إضرار بالمستقبل. نحن نشهد التحولات السريعة والواسعة في الفكر والمدنيّة والعلوم والآداب فلا مجال للغة محدودة قاصرة، هي من نتاج التخلف الاجتماعي. ليكن المستقبل حاضراً أمامنا فيما نكتب وفيما نقترح ونرى. هو هذا طريق التقدم وهي هذي اللغة السليمة القادرة التي نريد ...

هان كانغ وديبورا سميث : إنه لأمر رائع أن نفكر في إمكانيات اللغة

ترجمة / أحمد فاضل

" حين شرعت بترجمة رواية " النباتية " من الكورية إلى الإنكليزية للروائية هان كانغ وهي من أولى ترجماتي لم أكن أملك أية فكرة عنها ناهيك عن ما ستكون عليها في قابل الأيام من ردود فعل القراء والنقاد ، فقد قضيت معظم حياتي في القراءة ولم أكن أميز بعد أية لغة من اللغات سوف أختارها لكي أبدأ عملي كمترجمة فكان قراري بعد التخرج أنني سوف أتعلم لغة معينة أختارها لأصبح مترجمة أدب فاخترت الكورية لأسباب براغماتية لأنني كنت أعرف أن البلاد لديها مشهد أدبي حي ، ولكن في الواقع كنت قد قرأت عنها مثل بقية اللغات التي لم يقع اختياري النهائي عنها بعد كلغة يمكن أن أنطلق منها للترجمة وفي نهاية المطاف اقترح عليَّ الناشر رواية " النباتية " للكاتبة الكورية الجنوبية هان كانغ ترجمتها بعد معرفته دراستي للغتها الأم ، وعندما بدأت لم أكن أعرف ما هي العلاقة المعتادة بين المؤلف والمترجم والتي كان من المفترض أن تكون على اتصال بينهما أو حتى لو كانت كانغ تتحدث الإنكليزية لذلك ذهبت قدما في ترجمة روايتها وإرسالها للناشر وانتظار ما يتمخض عنه عملي هذا .

" النباتية " ترجمت بالفعل إلى عدة لغات وعندما رأيت هذه الكتب شعرت دائماً بغرابة أن يكون اسمي وصورتي عليها لذلك كنت سعيدة جدا عندما ترجمت إلى اللغة الإنكليزية لأنها هي لغتي الأخرى وكان رائعاً التفكير في الخفايا وإمكانيات اللغة الكورية فقد أرسلت إجابات على استفساراتها وبعض الأسئلة مني بالطبع وبدأنا تبادل رسائل البريد الإلكتروني وفي بعض الأحيان كنت أرسل صفحة كاملة ، لكنها كانت في الغالب قصيرة وممتعة جداً ، ويوم العمل في المملكة المتحدة هو تقريباً عكس ذلك في كوريا لذلك عليك إما الحصول على ما يصل في وقت مبكر أو البقاء حتى وقت متأخر للتحقق من أي رسائل للبريد الإلكتروني ومن ثم بدء العمل على الفور في كثير من الأحيان قبل الاستحمام ، أن مجرد العمل طوال اليوم يحتاج مني أيضا التوقف للراحة وحتى في بعض الأحيان الخروج للخارج للرياضة واستعادة لياقتي الذهنية فجملة واحدة قد تأخذ أكثر الوقت من التفكير لغرض وضع ما يقابلها والمضي قدما نحو إكمال العمل الذي شعرت نحوه بسعادة غامرة وهو يحقق فوزا لم أكن أحلم به على الإطلاق .

يذكر أن رواية المؤلفة الكورية الجنوبية هان كانغ التي تحمل اسم " النباتية " التي تجسد سعي امرأة للهروب من التفاهات المحلية عن طريق تحويل نفسها إلى شجرة حازت على جائزة مان بوكر الادبية العالمية لعام ٢٠١٦ وسلمت لجنة تحكيم الجائزة وقدرها ٥٠ ألف جنيه استرليني ٧٢٠٠٠ دولار لمؤلفتها هان كانغ ومترجمتها إلى الإنكليزية البريطانية ديبورا سميث.

وتدور أحداث الرواية حول قصة امرأة كورية " تستيقظ من أحلام مزعجة لتجد نفسها قد تحولت إلى لغز لا تعرف له حلاً " بحسب ما ذكرته لجنة التحكيم ، يشار إلى أن هان تبلغ من العمر ٤٥عاماً تقوم بتدريس الكتابة الإبداعية في معهد سيئول للآداب وحصلت على عدة جوائز أدبية في كوريا الجنوبية عن رواياتها التي تعد أول عمل لها ينشر بترجمة إنكليزية .

قالت هان كانغ وقت منحها الجائزة : " نيل هذه الجائزة يشرفني جدا " ، واختيرت الرواية باجماع لجنة تحكيم من خمسة أعضاء من بين ست روايات أخرى بينها " شيء غريب في ذهني " للتركي أورهان باموك ، واعتبر رئيس لجنة التحكيم بويد توكينل أن الرواية شاعرية ومؤثرة ،

أما المترجمة ديبورا سميث ٢٨ عاماً فقد بدأت في تعلم اللغة الكورية قبل سبعة أعوام بعد حصولها على شهادة في الأدب الإنكليزي وانتقالها إلى كوريا الجنوبية .

وبدأت جائزة مان بوكر الدولية عام ٢٠٠٥ كجائزة نصف سنوية تمنح لمؤلف يكتب بلغة أجنبية وتتوافر أعماله بالإنكليزية على نحو واسع النطاق وبداية من عام ٢٠١٦ تحولت مان بوكر إلى جائزة سنوية لكتاب مترجم واحد.

قناديل

▪ لطفية الدليمي

أضلل الألم عن مدائني

هذا الألم اللئيم ، الألم الذي صار بديل رفقة وشبيه سجن أو متاهة ، كنت أضلله غالبا عن عناويني وأوصد نوافذي بوجه خطوته المدلسة ، تصده سنادين الورد الغافية على حافات النوافذ وتطلق الزهور – حين يرتطم بها – ألوانها القزحية وشذاها الراعش كموسيقى الكمان فينهمر النهار مشعاً ومحرضاً على اجتناء الحياة ويستفز لحظتي مثلما تثير شهوة البقاء كل تلك الكتب المكدسة على طاولتي وتلك الأوراق التي ستغدو رواية أو كتاب مذكرات أو غير هذا وذاك ، تحاصرني نقرات خفية عجولة على الكيبورد : أهذه أصابعي توقظ الحروف المتروكة للغبار وهمهمات الليل ؟؟ أم تراني أعوم في رؤى خادعة ؟؟ لا ، إنها لست ماتوهمت ، فأنا هذه الغارقة في الحمى والصمت والمتأهبة لمقاومة الألم .

حاصرني شهراً وما استسلمت، وكانت مكابرتي تنتشلني من قاعه المظلم فتنهض الروح ، غير أن الجسد يبقى مغلولاً الى شرارات الوجع تطوقه من جنب إلى جنب وتنشب أشواكها في العصب والعظام.

أتعالى على العجز البشري الذي يستعبد العقل ويخلخل العزيمة وأجدني في البرهة التالية قادرة على تضليل الألم بل نكرانه والتنكر له ، ألوذ بكتاب عن الشرق البعيد وأغنية لمطربة فارسية، تعزز طاقتي لغة النبات ، عشبة إكليل الجبل ترش خضرتها وشذاها في الهواء الممطور فأتمتم : هوذا مدخل النجاة ، أن أحسن المقاومة كل لحظة وأتعلم حكمة الشجر، أجدد أساليب المواجهة وأستبدلها بسواها كل آونة لأحوّل دون انصياع الجسد للوجع ، أتنشق الضوء ، أحتسي الموسيقى ، ثم أعلن إمتناني للحياة ومن أحب ، أرى النباتات تطلق براعمها وتتفجر خضرة وأقواس نور ، وشجرة الصنوبر تضج بالحياة مثلما تفعل عادة وهي تهب نفسها للحريق وتحمي الغابة من شهوة النار ،تسخر من العاصفة فلا تهتز ولاتنحني وتعلمني درساً بليغاً في رفعة الصمود ، الأشجار سيدات الطبيعة معلمات الأمل يساعدنني على التحمل ،فيهدأ ألم الخاصرة والضلوع المرضوضة ، تؤجله رشقات من موسيقى وأحاديث طلية أبتكرها ، غير أنه لايعلن انسحابه النهائي بل يدمدم ملتفاً كأفعى : سأتلبث طويلاً لديك ، أسخر منه : سأهزمك أنت العابر الزائل وأنا العنيدة الباقية.

أحاول استدعاء ضحكتي المرحة التي تراجعت وذوت بين كماشة الهموم، أحاول استحضارمباهج افترضها فلا تجيء سوى ومضات من الآمال والوعود القادمة وتمسد بدفئها ملامح وجهي التي قلّصها وجع الأضلاع المرضوضة وأخرسها.

أستدرج اللغة لتدرأ موجات الألم ، وأراوغه بالنص والمفردات الباسلة فيلاعبني مثل صبي أخرق ويتخفى ثم يباغتني معلنا هزيمتي وهو يتربص باللغة والضحكة والأمل المستفيق والرؤى المتزاحمة ، يتربص بالنص الذي يتشكل في القلب ثم يفتك بالأفكار ومناجيات الروح لنفسها ،أقول سأهزمه كما يهزم ذهبُ الشمس عتمة الطين ، هو الذي ماعرف السبيل الى مدائني ،هاجمني ذلك المساء على حين غفلة مخترقا تدابيري المحكمة وغفلتي عن غدر الحياة.

عندما تمكن مني هذا الوافد السيء بعد الحادثة تواطأت معه ذاكرتي وأطلقت طوفاناً من أحزان البلاد وجنون حاضرها وعتمة الغد، فتداعى اصطباري ووهنت قواي وأوشكت – مع جزعي – على التسليم بالهزيمة ، غير أني تشبثت بالصبر الواهن توأمي وملاذي ، لكنه خذلني وتحالف مع الضد – الألم وتلاشى بعيداً ووجدتني في صحراء قنوط وعتمة ، غادرني لدى اكتمال الليل وانكشاف النهار، خان صحبتنا الممتدة واكتمالنا ببعضنا طوال كوارث وحروب وفقدانات، ولبثت أتشبث به وأتمسك بألفتنا واكتمالنا القديم وأنسج على مهلٍ رداء النجاة.

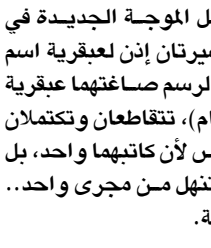

أحاول استدعاء ضحكتي المرحة التي تراجعت وذوت بين كماشة الهموم، أحاول استحضارمباهج افترضها فلا تجيء سوى ومضات من الآمال والوعود القادمة وتمسد بدفئها ملامح وجهي التي قلّصها وجع الأضلاع المرضوضة وأخرسها.

في البدء

▪ علاء المفرجي

سيرتان لعبقرية اسم

كتب رينوار الابن سيرتين تبدوان مختلفتين لمخرج مرة ولرسام كبير مرة أخرى.. السيرتان تتقاطعان في مرات كثيرة ومفصلية .. لكن اكثر مايجمعهما انهما كتبا بروح سينمائية. حتى ليبدو انهما سيرة واحدة لعصرين من خلال سيرة الرسام الأب والمخرج الابن.

في كتابه (رينوار أبي) يضعنا السينمائي جان رينوارعند سيرة والده االرسام أوغست رينوار ، خلال السنوات التي قضاها برفقته، يطلعنا على تفاصيل علاقتهما، ومحطات أساسية في سيرة رائد الانطباعية وبعض أفكاره حول الفن، كما يدعم عمله بشهادات بعض معاصريه .

فمنذ بدا بالرسم على الخزف الصيني قبل أن يدرس الفن. وبدأ يزور متحف اللوفر لدراسة لوحات أعظم الفنانين والتقى كلود مونيه الذي أثر به وتأثر به أيضاً. الى أن تمت استضافة ست من لوحاته في المعرض الأول للمدرسة الانطباعية. بل وفي نفس العام وضعت له لوحتين مع دوراند رويل بلندن.

«كان أبي يسرد هذه الذكريات على نحو عشوائي، لكني أعتقد أني نجحت في ترتيبً الوقائع»، هكذا قال رينوار الرسام لرينوار السينمائي في أواخر حياته .

يستعيد الأب سيرته من خلال ألم الروماتيزم والشلل الذي أقعده.. ويحكي للابن سيلاً من الذكريات التي لا رابط زمني لها لكنها ذكريات، ترصدها ذاكرة السينمائي ليقدمها لنا متسلسلة تتحدث عن جوانب في شخصية الأب الرسام «طلب علبة رسمه وفراشيه ورسم شقائق النعمان. تماهى مع الزهور ونسي ألمه، ثم أومأ إلى أحدهم لأن يناوله فرشاته، وقال: اليوم تعلّمت شيئاً ما»...

قيامه بالترحال إلى كثير من الدول التي شعر انها قريبة إلى قلبه وأحب أن يراها رؤى العين، ففى عام ١٨٨١ سافر رينوار إلى الجزائر، ثم إلى مدريد لمشاهدة أعمال دييغو فيلاثكيث، ومنها إلى إيطاليا لمشاهدة ورسم بعض لوح رفائيل بروما. أصيب رينوار بالالتهاب، ونتيجة لهذه الإصابة الحادة فقد اختار رينوار الجزائر لهوائها العليل ليتماثل الشفاء في ستة أسابيع، وهو نفس العام الذي التقى به بالملحن ريتشارد فاغنر، بمنزل الملحن بصقلية، وقام برسمه في خمس وثلاثين دقيقة فقط.

نتعرف على سيرة رينوار وعلى سيرة العصر الذي ولد فيه، والذي من أبهر عصور الرسام، ففيه ولدت تيارات الفن على يد رجال استثنائيين.. وفي ثنايا هذه السيرة نتوقف عند شهادات لمعاصريه، مثلما سنجد سيجد بين أوراقه مفكرة تحتوي على بعض أفكاره حول الفن والعمارة. ويتوقّف جان رينوار عند لوحات والده وأختياره الالوان بل كيف تنبعث الفكرة لتكون لوحة متكاملة على القماش.

بينما في كتاب (أفلامي وحياتي) يقول كاتب سيرة رينوار غلبرت موغ: "يبدو لي أن ثمة في الحياة التي تنتهي تواً ولا تزال حية في الذاكرة حماقة غير اعتيادية تختفي مع مرور السنين "،

فقارئ سيرة رينوار يلمس إن معظم أفلامه مرآة لما تجيش به حياته من عواطف وهواجس وآمال، تجلت عبر مسيرة طويلة في إبداع سينمائي يتسم بالفرادة والتجريبية والتي مهدت لظهور أجيال سينمائية بعده مثل الموجة الجديدة في نهاية الخمسينيات سيرتان إذن لعبقرية اسم في مجال السينما والرسم صاغتهما عبقرية جان رينوار (الرسام)، تتقاطعان وتكتملان في تفاصيلهما.. ليس لأن كاتبهما واحد، بل فيوض عبقريتيهما تنهل من مجرى واحد.. فيما التفاصيل مختلفة.

أوغست رينوار

جان رينوار